1. تتزايد اليوم فاعليّة النماذج بوصفها علامةً على تطوّر العقل العلميّ في مجالاتٍ شتّى، كالبيولوجيا والفيزياء والاقتصاد، إلى الحدّ الذي دفع ببعض المفكّرين إلى وصف عصرنا الحاليّ بأنّه "عصر بناء النماذج". وهذا ما يدفعنا إلى إعادة النظر في منزلة النماذج ومكانتها في تشكيل رؤيتنا للواقع، واستكشاف الدور الذي تؤدّيه في توجيه مسارات البحث العلميّ وبناء مفهومنا للحقيقة.

2. يشهد العلم اليوم تطورات جوهرية على مستوى مفاهيمه وتمشياته تؤثر في تصوراتنا للواقع وادراكنا للحقيقة. فلم يعد الواقع مجرّد معطيات مادية، بل صار تمثلا ديناميكيا يعكس نماذج متعدِّدة ومتجدّدة، مما يقودُنا إلى إعادة النظر في معاني الحقيقة وكيفية تمثّلنا للواقع ذاته.

3. من المفارقة اعتبار النمذجة سمة تطور العلم المعاصر وما يفضي إليه من تخلي عن الحقيقة. فبينما يُنظر إلى العلم بوصفه معرفة بالواقع وفق منهج تحكمه قواعد وأسس ثابتة، فإنّ تعدّد النماذج وتباينها يفتح الباب أمام التساؤل عن إمكان وجود حقيقةٍ نهائية وواحدة.

4. ثمّة تعارض بين بناء نماذج متنوعة تدل على ثراء العقل البشري وبين بلوغ حقيقة مطلقةٍ لا تحتملُ التعدّد. فكلّما تعدّدت التمثلات واختلفت المقاربات، ازداد زخم التساؤلات وتعمّق هامش الشكّ، الأمر الذي يكشف عن مفارقةٍ جوهريّةٍ بين الطموح إلى يقينٍ نهائيٍّ وحقيقةٍ واحدة، وبين تنوع النماذج وتغيرها .

5. ساد الاعتقاد بكون النماذج تمثلات تسعى الى إدراك حقيقة الواقع في حين يروم العلم النجاعة والتّحكّم في الواقع قصد تغييره. هذه المفارقة تنطوي على فكرةً مفادُها أنّ غاية العلم قد لا تنحصر في الكشف عن حقيقةٍ موضوعيّةٍ فحسب، بل تتعدّاها إلى تحقيق قدرةٍ أكبر على التحكّم في الواقع وتوجيهه نحو أهدافٍ معيّنة.

6. يسود على الصعيد الابيستيمولوجي نوع من التوتر بين الاعتراف بقيمة العلم من جهة والاختلاف حول تلك القيمة من جهة أخرى، ما يضعنا أمام مساءلةٍ عميقةٍ حول دور النموذج العلمي ومكانته في تشكيل تصوّراتنا للواقع طلبا للحقيقة

سفيان سعدالله